وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا يحملون راية عقيدتهم وإيمانهم أمام جبروت الكفر وطغيان الشرك ، فالفتاء فيهم فتاء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخلّفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وفرُّوا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالى من أىِّ مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوّمات ، بل يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم ؛ لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. ⦗١٠⦘ ﴾ [الكهف] أى : رحمة من عندك ، أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مُقوِّمات الحياة ، فالرحمة فى فجوة الجبل لن تكون من البشر ، الرحمة هنا لا تكون إلا من الله : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ⦗١٠⦘ ﴾ [الكهف] أى : يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق .

إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم ، فهو وحده القادر على أن يُوسِّع عليهم هذا الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ⦗٤٣⦘ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ⦗١١⦘ ﴾

يُقَال : ضُرِب الفسطاط على الأرض يعنى الخيمة ، أى : غُطِّيَتْ الأرض بها بعد أنْ كانت فضاءً ، والضرب : أن تلمس شيئاً بشيء بشدة شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب ، وإلاَّ كان الضارب ضارباً لنفسه .

لذلك ، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال :

أيا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَـدَرِ بنفْسِكَ تُعنف لاَ بالقَـدَرِ
وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بالعَصَا ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَر ؟

فمعنى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ .. ⑪ ﴾ [الكهف] أى : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجي ، والضرب على آذانهم هو الرحمة التى دعوا الله بها وطلبوها ؛ لأن الإنسان الذى يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إنْ تعب وأجهده العمل يقف بعض الوقت ليستريح ، فإنْ تعب من الوقوف قعد ، فإنْ تعب من القعود استلقى واضطجع ، فإنْ لم يسترح فلا يبقى إلا أن ينام ، ففى النوم تهدأ الأعصاب ، ويستريح الإنسان ، حتى مع الآلام فى أعنف الأمراض إذا نام المريض لا يشعر بشىء من الألم ؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مُكْثهم فى الكهف .

فالحق سبحانه - إذن - هو الضارب ، والمضروب هو الآذان ، والضرب على الآذان هنا للرحمة لا للعذاب ؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادئ الذى لا يُعكّر صَفْوه شىء ، والنوم هو الراحة التامة التى تطغى على الآلام العضوية فى الذات الإنسانية .

وقد اختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم ؛ لأن حاسة السمع هى أول الحواس عملاً فى الإنسان ، وهى أول آلة إدراك تُؤدّى مهمتها فى الطفل ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑱ ﴾ [النحل]

هذه الحواس هى منافذ العلم والإدراك للإنسان ، فلو وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل المولود تراه لا يرمش ؛ لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، أما لو صرختَ فى أذنه فإنه ينتبه فحاسة السمع تؤدى مهمتها منذ ولادته . وكذلك فالأذن تمتاز أيضاً بأنها الإدراك الوحيد الذى لا يتعطل ولا يتوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم .

وهؤلاء الفتية دخلوا وأَوَوْا إلى الكهف ، وهو فَجْوة فى جبل فى صحراء وهى عُرْضة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النائم ، فلو تركهم الخالق سبحانه فى نومهم هذا على طبيعتهم لأزعجتهم هذه الأصوات وأقلقتْ راحتهم ؛ لذلك عطّل حاسة السمع عندهم ، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه المدة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف] ومعنى عدداً أى : سنين كثيرة ؛ لأن القليل لا يُعَدُّ لأنه معروف ، فإنْ ذكر العدّ فاعلم أنه للشىء الكثير ، كما تقول : فلان عنده مليون عَدّاً ونقداً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ[1] أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

(١) الحزب : الجماعة من الناس فيهم قوة وصلابة يجمعهم غرض واحد ومصالح وآراء متشابهة . [القاموس القويم ـ مادة : حزب] . قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٤٠٩٤) : « الظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً . والحزب الثانى من أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين » .

(بَعَثْنَاهم) أى : أيقظناهم من نومهم الطويل ، وما داموا قد ناموا فالأمر إذن ليس موتاً إلا أنهم لما طالتْ مدة نومهم شبَّهها بالموت : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الكهف] أى : الفريقين منهم ؛ لأنهم سأل بعضهم بعضاً عن مُدَّة لُبْثهم فقالوا : يوماً أو بعض يوم . أو : المراد الفريقان من الناس الذين اختلفوا فى تحديد مدة نومهم : ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) ﴾ [الكهف] أى : لنرى أىّ الفريقين سيُقدِّر مُدّتهم تقديراً صائباً . والأمد : هو المدة وعدد السنين .

والمتأمل فى الآيات السابقة يجد فيها مُلخَّصاً للقصة ومُوجزاً لها ، وكأنها برقية سريعة بما حدث ، فأهل الكهف فتية مؤمنون فرُّوا بدينهم إلى كهف من الكهوف ، وضرب الله على آذانهم فناموا مدة طويلة ، ثم بعثهم الله ليعلم مَنْ يحصى مدة نومهم ، وهذه البرقية بالطبع لم تُعطِنَا تفصيلاً لكل لقطات القصة ؛ لذلك تبدأ الآيات فى التفصيل فيقول تعالى :

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) ﴾

(نَحْنُ) أى : الحق سبحانه وتعالى ، فهو الذى يقصُّ ما حدث بالحق ، فلو أن القاصَّ غير الله لتُوقِّع منه الخطأ أو النسيان ، أو ترك شىء من الأحداث لهوىً فى نفسه ، إنما إنْ جاءك القصص من الله فهو الحق ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف]

إذن : هناك قصص ليس بالحسن ، وهو القَصَص غير الدقيق .

فالقـصَصُ القرآني يضمن لـك منتهى الدقة في عـرض الأحداث ، ويُصـوّر لك كل اللقطات ، وكلمـة قـصـة أو قـصَص تدلُّ على دقـة التـتبع ؛ لأنهـا من قصّ الأثر أي : تتبّـعه وكـان لهذه المـهمـة رجال معروفون بقصّاصي الأثر ، وهم الذين يتتبعون الواقع .

و (نَبَأَهُمْ) النبأ : هو الخبر العظيم .

ثم يقـول تبـارك وتعـالى : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ⦗١٣⦘﴾ [الكهف]

هذا هو تفـصـيل القصـة بعـد أنْ لخّصـهـا القـرآن في المذكـرة والبرقية السابقة ، وكأن الحق سـبحانه يقول لرسوله : لقد ذكر ناسٌ هذه القصـة من قبل ، لكنهـا قُصَّتْ بغـير الحق ، وغُيّـر فيـها ، لكن قَصّنا لها هو القَصَص الحق الذي لا كذبَ فيه .

فحقيـقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله ، وهذه قضيـتهم التي ضَحَّوْا من أجلـهـا ، فلـمـا آمنـوا بالله تولاّهم ونوّر بصـائرهم وربـط على قلوبهم ، وزادهم إيمـاناً ، كمـا قال في آية أخـرى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⦗١٧⦘﴾ [محمد]

وما أشبه هذه المسألـة بالمعلّم الذي يلمح أمارات النجابة والذكاء على أحد تلاميذه ، ويراه مُـجيباً حريصاً على العلم فيُوليـه اهتمامه ، ويمنحه المزيد من المعلومات .

ونلاحظ هنا أن هؤلاء المـؤمنين الذين ضَـحَّوْا بكلّ شيء وفـرُّوا بدينهم مـا زالوا في مرحـلة الشبـاب ، وهو مظنّة الانشـغال بالدنيـا والحرْص على مُـتعهـا ، أما هؤلاء فقـد انشغلوا بدينهم منذ صـغَرهم ليكونوا قدْوة ومثلاً للشباب المؤمن في كل زمان ومكان ، فالفتَاء في أهل الكهف : فتاء إيمان وفتاء عقيدة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا[1] ﴿١٤﴾ ﴾

والربط يعنى أن تربط على الشىء وتشدّ عليه لتحفظ ما فيه ، كما تربط القِرْبَة حتى لا يسيل منها الماء ، وتربط الدابة حتى لا تنفلت ، وقد وردتْ مادة (ربط) فى القرآن كثيراً ، منها قوله تعالى فى قصة أم موسى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

أى : ربط على ما فى قلبها من الإيمان بالله الذى أوحى إليها أن تُلقِىَ بولدها فى الماء ، ولولا أنْ ربط الله على قلبها وثبّتها لانطلقتْ خلف ولدها تصرخ وتنتحب وتُلفِت إليه الأنظار ﴿ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

أى : تكشف عن الخُطّة التى أمرها الله بها لنجاة موسى عليه السلام ، وهكذا اطمأن قلب أم موسى ، وأصبح فؤادها فارغاً ـ أى : من الانفعالات الضارة ، ومعلوم أن القلب هو محلُّ الانفعالات ، بدليل ما يحدث فيه من اضطراب وزيادة ضربات وتدفُّق للدم عند الغضب مثلاً .

ولا يُسمَّى القلب فؤاداً إلا إذا توقّد بالمشاعر وتحرك بها ، وربط

(١) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شىء ، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف] . أى : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطاً للشعور يحكم تصرفاتها فتأتى سليمة مُتمشّية مع الخطة المرادة ..

ومن هنا نأمر الغاضب الذى تغلى الدماء فى عروقه بالهدوء وضبط النفس ؛ لأن الهدوء سيعينه على الحق ، ويُلجم جماح غضبه الذى لا تُحمد عُقباه ، ألا ترى التوجيه النبوى فى حال الغضب ؟ إنه ينصح بتغيير الوضع الذى أنت عليه ؛ لأن هذه العملية تحدث لديك نزوعية ، تصرف عنك الغضب .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾ [إبراهيم] أى : فارغة خالية ليس فيها شىء ؛ لأن الشىء إذا فرّغته من مُحتواه امتلأ بالهواء .

وهنا يقول الحق سبحانه فى أهل الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (١٤) ﴾ [الكهف] لتظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا تُخرجها الأحداث والشدائد ، وهذا من زيادة الهدى الذى أخبرتْ به الآيةَ السابقة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الكهف]

قاموا : القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم فى وجهه ، وأن الباطل أفزعهم فهبُّوا للتصدِّى له بقولهم : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الكهف] ولا بُدَّ أنهم سمعوا كلاماً يناقض قولهم ، وتعرّضوا فى دعوتهم للحرب والاضطهاد ، فالآية تعطى صورة لفريقين : فريق الكفر الذى ينكر وجود الله أو يشرك به ، وفريق الإيمان الذى يُعلنها مُدوّية : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الكهف]

وإنْ كان فريق الكفر يدعو إلى عبادة آلهة من دون الله فإن فريق الإيمان يقول : ﴿ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَـٰهًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف] فإن ادَّعيْنَا إلهاً من دون الله ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف] أي : فقد تجاوزنا الحدّ ، وبَعُدْنا عن الصواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾

وهنا يخبر أهل الكهف الفتية المؤمنون عن قومهم أنهم اتخذوا من دون الله آلهة متعددة ، دون أن يكون لهم دليل أو حُجّة واضحة على صدْق ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف] فأفظع الظلم وأقبحه أنْ نفترىَ على الله الكذب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض : ما دُمْنا اعتزلنا أهل الكفر ، ونأيْنَا عن طريقهم ، وسلكنا مسلكَ الإيمان بالله الذى يسَّره الله لنا ، فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتمى فيه فراراً بديننا ، ومخافة أن يفتننا القوم عن ديننا .

ويلفتنا هنا إلى أن فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد آخر فيه مُتَّسع للحياة ، بل إلى كهف ضيق فى جبل فى صحراء ، وليس به مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ؛ لذلك ينبهنا الحق سبحانه : إياك أن تقول : إن الكهف ضيق ، وكيف يعيشون فيه ؟ لأنهم مهاجرون إلى الله لاجئون إليه مُتوكِّلون عليه .

لذلك قال بعدها : ﴿يَنشُرْ لَكُمْ .. ⦗١٦⦘﴾ [الكهف] فالضيق يقابلُه البَسْط والسَّعة ، لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون فى رحمة الله معتقدون أن الذى هاجروا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم ، وسوف يُوسِّع عليهم برحمته هذا الضيق ، وقد وَسَّعه الله عليهم فعلاً حين أنامهم ، ألاَ ترى النائم يربع فى الدنيا هنا وهناك لا تحدُّه حدود ؟

ومن هذه السعة ما حدث فى قصة نبى الله موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - حينما تبعه فرعون بجنوده حتى قال أتباعه : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ⦗٦١⦘﴾ [الشعراء] ، فقد ضاق عليهم الخناق حيث البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، ولا مهربَ لهم فيما يرون من واقع الأمر . فماذا قال موسى لقومه فى هذا الموقف ؟ قال بملء فيه قوْلَة الواثق من نصر الله : ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ⦗٦٢⦘﴾ [الشعراء]

فجاءه التأييد من ربه فى التوِّ واللحظة ، وفُرِّج عنه وعن أصحابه

ما يُلاَقون من ضيق المخرج ، فأوحى الله إليه : ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ.. (٦٣)﴾ [الشعراء]

كذلك هنا : ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .. (١٦)﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)﴾ [الكهف] والمراد بالمرفق جمع مرافق ، وهى مُقوّمات الحياة التى لا يستغنى عنها الإنسان ، فلما أنامهم الله أغناهم عن مرافق الحياة ، لأنهم إنْ ظلوا فى حال اليقظة فلا بُدَّ أنْ يحتاجوا إلى هذه المرافق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ(١) عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ(٢) ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)﴾

بعد أنْ ضرب الله على آذانهم فعصمهم من الأصوات التى تُزعجهم وتُقلق نومهم عصمهم أيضاً من ضوء الشمس ، وقد أثبتت الأبحاث خطرَ الأشعة خاصة على النائم ، وأن للظُّلمة مهمةً ، فبها تهدأ الأعصاب وترتاح الأعضاء ، والشمس خَلْق من خَلْق الله ، لها مَدارٌ ثابت وقانون لا يتخلّف ، كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ [الأنبياء]

---

(١) تزاور عنه : مال وتنحَّى وانحرف . أى : أن الشمس تميل وتنحرف عنهم لئلا تؤذيهم . [القاموس القويم ١/٢٩٢] .

(٢) قرض المكان : تركه وتجاوزه . أى : تتركهم الشمس وتتجاوزهم جهة اليمين فلا تؤذيهم الشمس بحرِّها . [القاموس القويم ٢/١١٣] .

ولكن الخالق سبحانه وتعالى خرق لهم نظام الشمس حتى لا يزعجهم ضوؤها فجعلها (تزاور) أى : تميل عند طلوعها عن الكهف ، ومنه الزُّور : أى الميل عن الحق ، وازورّ عن الشيء أى : مال عنه . فكانت الشمس إذا طلعتْ تميل عن الكهف جهة اليمين .

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ .. (١٧)﴾ [الكهف] والقرْض - كما هو معلوم - أنْ تعطى غيرك شيئاً يحتاج إليه ، فكأن الشمس تقرضهم وتسلفهم ، كونها لا تدخل عليهم عند غروبها ، وهذا أمر ليس من حقهم ، فكأنها تقرضهم إياه . ولا شكّ أن هذه العملية مظهرٌ من مظاهر قدرة الله التى تصنع الشيء وضده .

ونلحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - جعل الفعل للشمس فى تزاور وتقرضهم ، وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أنْ ضبط الله تعالى حركتها على هذه الأفعال كما تضبط الآلة اليوم .

وقوله : ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ .. (١٧)﴾ [الكهف] أى : فى الكهف ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. (١٧)﴾ [الكهف] وما دامت هذه الأفعال للشمس آيةً من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته تعالى ، فإياك أنْ تعترضَ : كيف تميل الشمس ؟ وكيف تُغيِّر اتجاهها ؟ لأن الخالق سبحانه خلق الخَلْق ، وأعطى لكل مخلوق قانونه الذى يسير به ، ومع ذلك لم يترك لكل مخلوق أنْ يفعل بقانونه ما يريد ، بل له سبحانه وتعالى قيُّومية على القانون ، تبطله إنْ شاء ، وتحركه إنْ شاء .

ثم يقول تعالى : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)﴾ [الكهف]

فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، فهناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادى والمُضل ، فلماذا يعذبنى إن ضللت ؟

وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لم تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت ؟ إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التى جاءت لك هى مكسب تركته وأخذت المسألة التى فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

والهداية نوعان : هداية دلالة ، وهى للجميع ، للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق سبحانه لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يُقبل على الإيمان به ، فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيأخذ بيده ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطى له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره وييسر له أمره .

فمن شاء الحق سبحانه هدايته أعطاه الهداية ، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدى ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدى ، وكذلك الظالم والفاسق ، لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع الحق سبحانه عنهم هداية المعونة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ(١) ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ(٢) لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) ﴾

أى : لو أتيح لك النظر إليهم لخُيِّل إليك أنهم أيقاظ غير نائمين ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها ، ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأنْ يُقلِّبهم فى نومهم مرة ناحية اليمين ، وأخرى ناحية الشمال ، لتظلَّ أجسامهم على حالها ، لا تأكلها الأرض .

ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّر له أنْ ينام فترة طويلة على سرير المرض يُصَاب بمرض آخر يُسمُّونه قرحة الفراش ، نتيجة لنومه المستمر على جانب واحد ـ عافانا الله وإياكم ـ وقد جعل لهم هذا التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ .

وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ.. (١٨) ﴾ [الكهف] ويبدو أنهم كانوا من الرعاة ، فتبعهم كلبهم وجلس مَادًا ذراعيه بفناء الكهف أو على بابه ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) ﴾ [الكهف] فقد ألقى الله مهابتهم والخوف منهم فى نفوس

---

(١) قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم فى كل عام تقليبتان . وقيل : فى كل سنة مرة . وقال مجاهد : فى كل سبع سنين مرة . وقالت فرقة : إنما قُلِّبوا فى التسع الأواخر ، وأما فى الثلثمائة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله . [تفسير القرطبى ٥/٤١٠٠] .

(٢) الوصيد : فناء الكهف أو عتبته . [القاموس القويم ٢/٣٣٩] .

الناس ، فإذا ما اطلع عليهم إنسان خاف وولّى هارباً يملؤه الرعب ؛ لأن هيئتهم تُوحى بذلك ، حيث يتقلّبون يميناً وشمالاً ، ومع ذلك لا يصحُو منهم أحد ، ولا يقوم منهم أحد طوال هذه المدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ
مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟
رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ[1]
هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم
بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾

قوله : (بعثناهم) أى : أيقظناهم من نومهم ؛ لأن نومهم الطويل الذى استغرق ثلاثمائة سنة وتسعاً أشبه الموت ، فقال (بَعَثْنَاهُمْ) ، والبعثُ هنا لقضية خاصة بهم ، وهى أنْ يسأل بعضهم بعضاً عن مُدّة لُبْثهم فى الكهف ، وقد انقسموا فى سؤالهم هذا إلى فريقين الفريق الأول ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف]

فَرَدَّ الفريق الآخر بما تقتضيه طبيعة الإنسان فى النوم العادى ، فقال : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف] فالإنسان لا يستطيع تقدير مدّة نومه بالضبط ، لكن المعتاد فى النوم أن يكون كذلك يوماً أو بعض يوم .

---

(١) الوَرِق : الدراهم المضروبة . والورِق : بكسر الراء : الفضة . [لسان العرب - مادة : ورق] .

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا فى ذواتهم شيئاً يدلُّ على مرور زمن طويل ، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التى ناموا عليها ، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة ، ولم يتغير شعرهم مثلاً إلى البياض ؛ لذلك قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ولو وجدوا أنفسهم شيباً لقدَّروا الزمن المناسب لهذا الشيب .

وهذه وقفة المشدوه حين يُسْأل عن زمن لا يدرى مُدته ، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده ، وهذا كقوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[1] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

لقد حكم على مُدَّة لُبْثه بيوم أو بعض يوم ؛ لأنه وجد نفسه على الحال التى عهدها لم يتغير منه شىء ، فكيف يتأتَّى الصدق من الحق سبحانه فى قوله (مائة عام) والصدق فى قول العُزَيْر بيوم أو بعض يوم ؟

لا شكَّ أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه ، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان وللمكان ، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم ، الباسط له إلى مائة عام .

لذلك أظهر الخالق سبحانه فى هذه المعجزة الدليل على صدق

(١) سنه الطعام يسنه : تغيَّر بعد مُضى زمن عليه . وتسنَّه الطعام : تغير . [القاموس القويم ١/٣٣٢] .

القولين : ففى طعام العُزَير الذى ظلَّ على حاله طازجاً لم يتغير دليل على يوم أو بعض يوم ، وفى حماره الذى رآه عظاماً بالية دليل على المائة عام ، فسبحان الله الذى يجمع الشيء وضده فى آنٍ واحد .

ثم يقول تعالى حكايةً عنهم : ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ .. ﴾ (١٩) [الكهف] وهو قَوْل الجماعة الذين أرادوا إنهاء الخلاف فى هذه المسألة ، فقالوا لإخوانهم : دعونا من هذه القضية التى لا تفيد ، واتركوا أمرها لله تعالى . ودائماً يأمرنا الحق سبحانه بأنْ ننقلَ الجدل من شيء لا ننتهى فيه إلى شيء ، ونُحوله للأمر المثمر النافع ؛ لذلك قالوا :

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ (١٩) [الكهف]

والوَرِق يعنى العملة من الفضة ، فأرادوا أنْ يرسلوا أحدهم بما معهم من النقود ليشترى لهم من المدينة طعاماً ؛ لأنهم بمجرد أن استيقظوا انتهت حالتهم الاستثنائية ، وعادوا إلى طبيعتهم ؛ لذلك طلبوا الطعام ، لكن نلحظ هنا أن الجوع لم يحملهم على طلب مطلق الطعام ، بل تراهم حريصين على تزكية طعامهم واختيار أطيبه وأطْهره ، وأبعده عن الحرام .

وكذلك لم يَفُتْهم أنْ يكونوا على حذر من قومهم ، فَمنْ سيذهب منهم إلى هذه المهمة عليه أن يدخل المدينة خِلْسة ، وأن يتلطف فى الأمر حتى لا يشعر به أحد من القوم ، ذلك لأنهم استيقظوا على الحالة التى ناموا عليها ، وما زالوا على حَذَر من قومهم يظنون أنهم يتتبعونهم ويبحثون عنهم ، ويسْعَوْن للقضاء عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا احتياط منهم للدين ، وحماية للعقيدة التى فرُّوا بها . فإن يرجموكم فسينتصرون عليكم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا(١) عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

فى قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت ، فها أنتم ما زلتم على قَيْد الحياة وفى سَعَة الدنيا ، ومع ذلك أنامكم الله هذه النَّوْمة الطويلة ثم بعثكم ، وقد عُثِر عليهم ، وما زالت فيهم حياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ(٢) فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا

(١) أعثره على الأمر : أطلعه عليه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] . أى : جعلنا الناس يطلعون عليهم ويعرفون كهفهم وقصتهم . [القاموس القويم ٢/٧] .

(٢) قال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك . وذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة . (تفسير ابن كثير ٣/٧٧) .

رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم ، ويبدو أنهم كانوا على مسْحة من الدين ، فأرادوا أنْ يحافظوا على هذه الآية الإلهية ، ويصحّ أنهم بمجرد أنْ عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا .

وهذه مسألة يجب أن يُؤرّخ لها ، وأن تخلد ؛ لذلك جعلوها مثلاً شَرُوداً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الفتية الذين ضَحَّوْا في سبيل عقيدتهم وفَرُّوا بدينهم من سَعَة الحياة إلى ضيق الكهف ؛ ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة ، ودليلاً على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويُخلِّد ذكراهم إلى قيام الساعة .

لذلك قال بعضهم لبعض : ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] أي : مطلق البنيان ، فعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً ﴿ قَالَ الَّذِينَ(١) غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ(٢) عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن الاختلافات التي نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف ، وما يتعلَّق بهم من تفصيلات هي في حقيقتها عِلْم لا ينفع وجَهْل لا يضر ، فقال تعالى :

---

(١) حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين : أحدهما : إنهم المسلمون منهم . والثاني : أهل الشرك منهم . قال ابن كثير في تفسيره (٧٨/٣) : « الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤١١٠/٥) : « تنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة ، فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك أشرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة » . لفظ مسلم .